ذكريات وتجارب

أول درس ألقيته . . .*

أبداً لا أنسى تلك الساعة الرهيبة العصيبة التي ألقيت فيها أول درس في أول فصل ! كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً والسن حديثة والنفس غريرة والنظر قصير ، وكانت المدرسة ثانوية أجنبية ، تجمع أخلاطاً من الأجناس والأديان ، وأنماطاً من الأخلاق والتربية ، وكنت قد أدركت قسطاً من العلم النظري على الطريقة الأزهرية ، وشدوت طرفاً من التعليم الفني على الطريقة اللاتينية ، إلا أن ما حصلت منهما كان لا يزال طافياً في ذهني ، متحيراً في فكري ، لا يطمئن إلى ثقة ، ولا يستقر على تجربة ! أضف ذلك إلى طبع حَيِيّ ، ولسان من الخجل عيي ، ووجه للقاء الناس هيوب !

قضيت موهناً من الليل في إعداد الدرس : أراجع مادته وأرسم خطته وأسدد خطاه ، ثم احتفلت لكلام أقابل به التلاميذ قبل التمهيد للدرس ، وغدوت إلى المدرسة أقرع باب الأمل الرجو ، وأستطلع ضمير الغيب المحجب . دق الجرس فجاوبه قلبي بدقات عنيفة كادت تقطع نياطه وتشق لفائفه ، وقمت أجر رجلي وبجانبي مفتش الكلية جاء يقدمني إلى الطلبة . دخلنا الفصل فحيانا التلاميذ بالوقوف ، وقال المفتش فأطال القول وأجزل الثناء ، ثم خرج وبقيت ! !

أقسم أني أقول الحق وإن كنت أجد بشاعة طعمه ومرارة مذاقه على لساني ! لقد نظرت إلى التلاميذ نظرة حائرة ، ثم رجعت إلى نفسي أحاول إخراج ما فيها من الكلام المهيأ المحفوظ ، فكأن ذاكرتي صحيفة بيضاء ، وكأن لساني مضغة جامدة لا تحس !

السكون شامل رهيب ، والأبصار شاخصة ما تكاد تطرف ، ووجوه الشباب ترتسم عليها ألوان مختلفة متعاقبة من خطرات النفوس ونزوات الرءوس ، وأنا واقف بينهم موقف المحكوم عليه ، أعالج في نفسي الخور والحَصَر ، وأجهد في لم ما تشعث من ذهني وتبدد من قواي ، حتى هداني الله إلى طريق الدرس ، فاعتسفته اعتسافاً دون مقدمة ولا تمهيد ولا عرض ! !

أتريد أن تعفيني يا صديق من وصف هذا الدرس صوناً لسر المهنة ؟ ولكن لماذا تتدافن الأسرار وتتكاتم العيوب ؟ إن في الدلالة على أوعار الطريق ومضايقها ومزالقها تحذيراً للسالك البادئ ، وتبصرة للناشئ الغرير

* * *

بدأت الدرس بصوت خافض وطرف خاشع ولسان مبلبل ، وسرت فيه وأنا واقف ، لا أدنو من السبورة مخافة أن أحرك سكون الفصل ، ولا ألمس الطباشير خشاة أن أسيء الكتابة ! !

كان من المعقول أن يعاودني الهدوء ويراجعني الثبات بعد زوال دهشة الدخول وربكة البدء لو كنت واثقاً من نفسي متمكناً من درسي ، ولكن نظام الموضوع كان قد انقطع فتبعثرت حباته وتعثرت خطواته ، ورحت أسرد ما تذكرته منه وأنا أشعر بكلماتي تحتضر على شفتي ، وريق يجمد في فمي ، وبعرق يتصبب على جبيني ، حتى فرغت ، ثم جلست أبلع ما بقي من ريق ، ونظرت فإذا الساعة لم يمض نصفها ، وإذا التلاميذ يتلاحظون ويتهامسون وعلى كل شفة بسمة خبيثة لولا تعوّد النظام وقوة التهذيب لعادت قهقهة صاخبة ! !

ماذا أقول بعد أن نفد القول ؟ وبماذا أملأ الفراغ الباقي من الوقت ؟ وكيف أؤخر انفجار هذه الضحكات المكظومة ؟ أسئلة كانت تضطرب في خاطري القلق فلا أجد لها جواباً غير الحيرة ! ! حتى تطوع تلميذ جريء (لانقاذ الموقف) فقال :

« احك لنا حكاية يا افندي بأي ! »

ولم تكد شفتاي تنفرجان عن مشروع الرد حتى ابتدرني آخر :

« لأ يا افندي ، اتكلم لنا شويه إنشا شفهي »

وآخر : « حضرتك حتدّينا على طول ؟ »

وآخر : « اسم حضرتك إيه يا افندي ، والله انت راجل طيب ! ! »

وآخر : « فلان صوته جميل يا افندي ، خليه يغني شويه »

فقطعت سيل هذه الأسئلة المتجنية الساخرة بهذه الجملة الحيية المتواضعة :

— على كل حال كاد الوقت ينتهي فلا يتسع لشيء من هذا :

* من كتاب (في أصول الأدب) وسيصدر قريباً

ولـكن صوتاً أشبه بصوت القدَر قد انبعث من أقصى الحجرة يقول :

«أوه ! دا لسه ساعة وربع ! حصة العربى ساعتين كل يوم !»

— ساعة وربع ؟؟ نعم ساعة وربع ! أقضيها على هذه الحال الأليمة كما شاء نظام (الفرير) ، أو كما قضى الجد العاثر والطالع المشئوم ! ! وإذن لامناص من انفجار البركان ووقوع الـكارثة !

* * *

كأنك تريدنى على أن أسوق إليك بقية القصة ! !

حنانيك ! لا تكلفنى هـذه الخطة ، واعتمد على نفسك وحدسك فى التخير والاستنتاج ! !

لقـد انحل النظام فتشعث الأمر وانتشر ؛ وأذكر أنى حاولت الـكلام مراراً فلم أسمع صوتى من اللغط ! فجعلت قيادى فى يد (أولادى) ثم سكت حتى نطق الجرس ! !

خرجت من الفصل أميد من الهم وأجر ذيل الفشل السابغ الضافى ، وفى نفسى أن أترك التعليم وهو حديث صباى ومنتجع هواى الى عمل آخر يصلح لى وأصلح له ! !

ولـكني عدت الى الفصل ، ومضيت فى التعليم ، وكنت بعد شهرين اثنين مدرس الفصل الأخير وأستاذ الـكلية الأول !

فما الذى جعل من اليأس أملاً ، ومن الفشل فوزاً ، ومن الضعف قوة ؟

إسمح لى أن أكون صريحاً فيما كان لى ، كما كنت صريحاً فيما كان على

لقد التمست الوصلة الى النجاح فى أسباب خمسة كلها معلوم بالضرورة مؤيد بالطبع ، ولـكن العلم غير العمل ، والرأى خلاف العزيمة ، والتجربة وجود الفكرة وواقع الحقيقة

(١) *مراعاة الدرس وارهاف النظر* — فلم أترك كتاباً فى المواد التى أدرسها حتى تقصيته أو ألممت به واستفدت منه . وكان جدوى ذلك علىّ وثوق الطلبة بما أقول ، وظهور التجديد فيما أعمل ، وتصريف الدرس وتنويعه على ما أحب . ولن تجد أشفع للمدرس من سعة اطلاعه وغزارة مادته

(٢) *اعداد الدرس وأدائه* — وكان يعنيني على الأخص ربطه بالدروس السابقة ، والسير فيه مع الطلاب خطوة خطوة على الطريقة الاستنتاجية (inductive) ، ثم تلخيصه بطريق الأسئلة . فكان من حسن اعداده أن ملأت الوقت كله به ، فلم يعد فيه فراغ لعبث عابث ولا تجنى سفيه ، وجررت اليه أذهان الطلاب بالتشويق والتطبيق والسؤال فلم يصبهم سأم ولا ضيق ، وشغلتهم به عن أنفسهم وعنى فلم يفرغوا لاصطياد نـكتة ولا لالتماس غميزة . وليس أعون على حفظ نظام الفصل من ملء الوقت بالمفيد الممتع ، ولا أضمن لجودة شرح المعلم وحسن استماع التلميذ من فهم الموضوع

(٣) *سعة الرقى* — فلم أتشبث بالقديم ، ولم أتعصب للـكتاب ، ولم أعْنَ إلا بما له قيمة عملية . فالموضوعات منتزعة من حياة التلميذ وحال المجتمع ، والأمثلة مستنبطة من أساليب العصر ومواضعات أهله ، والبحث حر فى حدود المنطق ، يقوم على أساس التحليل والنقد والموازنة . وفى تشابه الفـكرة والنزعة والغاية توثيق الصلة بين المعلم والمتعلم

(٤) *حسن الخلق* — ولعمرى ما يؤتى المعلم إلا من إغفاله هذه الجهة . فالادعاء والتظاهر ، والـكبرياء والتفاخر ، والبذاء والتنادر ، والـكذب والتحيز ، والـكسل والتدليس ، آفات العلم وبلايا المعلم . وما استعبد النفس الشابة الحرة كالخلق الكريم ، ولا يَسَّر تعليمها وتقويمها كالقدوة الحسنة . ناهيـك بما يتبع ذلك من جمال الأحدوثة واستفاضة الذكر ، وهما يزيدان فى قدر المعلم واعتباره ، ويغنيان التلاميذ الجدُد عن اختباره

(٥) *قوة الحزم* — فكنت ألين فى غير ضعف ، وأشتد فى غير عسف ، وأسير بالطالب إلى الواجب عن طريق ضميره وحسه ، لا عن طريق تأنيبه وحبسه ، وأجعل رضاى عنه غاية ثوابه ، وسخطى عليه غاية عقابه ، وأعده الوعد فلا أذهل عن تنجيزه ، وأحكم عليه الحكم فلا أنكل عن تنفيذه ، وأستعين على فهم عقليته ودرس نفسيته بانشائه فأعامله بما يوائمه ، وأعالجه بالدواء الذى يلائمه

* * *

كل ذلك يسـعده طبع غالب ، ورغبة حافزة ، ومران طويل ، وقدَر من الله جعلنى أجد سعادتى وراحتى فى الفصل وبين الطلاب ، أكثر مما أجدهما فى البيت وبين الأصحاب

ولـكن المعلمين والأسفاء كما بدأهم الله يعودون ! فليت شعرى هل يكون الدرس الأخير فى مبدإ مماتى ، كما كان الدرس الأول فى مبدإ حياتى ؟

الزيات